التوفيق والخذلان في أفعال الله ﷻ
(دراسة عقدية)

د. إبراهيم بن عبد الله الجربوع
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة – كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

التوفيق والخذلان في أفعال الله ﷻ (دراسة عقدية)

د. إبراهيم بن عبد الله الجربوع

قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة – كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تاريخ تقديم البحث: ٢٧/ ٢/ ١٤٤٣ هـ تاريخ قبول البحث: ٨/ ٥/ ١٤٤٣ هـ

ملخص الدراسة:

يهدف هذا البحث إلى دراسة المسائل المتعلقة بالتوفيق والخذلان من حيث تعريفها ومفهومها عند أهل السنة والجماعة ونقل كلام العلماء في ذلك، وذكر العلاقة بين فعل العبد وربه من حيث إضافة الفعل إلى الله تارة وإلى العبد تارة، وبيان مقتضيات حكمة الله في ذلك، ثم بيان تنوع دلالة الآيات القرآنية على توفيق الله لعبده، وأنه سبحانه يوفق من يشاء من عباده بأسباب تقتضيها حكمته، ومنها طلب العبد للتوفيق، وقبوله لهدى الرب ﷻ، ودلالة الآيات القرآنية كذلك على حصول الخذلان للعبد بأسباب اقتضت ذلك، منها إعراضه عن أسباب التوفيق، ثم ذكر كل من أسباب التوفيق والخذلان وتنوعها، ثم بيان الحكمة من حصول التوفيق والخذلان للعباد.

الكلمات المفتاحية: التوفيق، الخذلان، الهداية، الإضلال، أفعال الله.

Conciliation and betrayal in the actions of God Almighty (a doctrinal study)

Dr. Ibrahim bin Abdullah Al-Jarbou
Department Creed and Doctrines – Faculty Fundamentals of Religion
Imam Muhammad bin Saud Islamic university

Abstract:

This research aims to study the issues related to success and betrayal in terms of its definition and concept with the Sunnis and the group and the transmission of the words of the scholars in that. In addition, mentioning the relationship between the action of the slave and his Lord in terms of adding the act to God sometimes and to the slave at other times and clarifying the requirements of God's wisdom in that. Then clarifying the diversity of indication of the Qur'anic verses on God's success to his servant, and the meaning of the Qur'anic verses as well as the betrayal of the servant, then mentioning each of the causes of success and betrayal and their diversity, then explaining the wisdom of success and betrayal of the servants.

key words: association, betrayal, guidance, misguidance, actions of God.

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١]

أما بعد: فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينعم على من شاء من عباده بنعمة التوفيق، فيرشده إلى سبل مراضيه، ويصرفه عن ما يهلكه ويرديه، وتلك مِنةٌ لا ينالها الا الموفقون، الذين استقامت أحوالهم، وحسنت فِعالهم، فهم من كل خير قريبون، وعن السوء والشر متجافون متباعدون.

ويقابلهم المخذولون، الذين حقت عليهم من الله النقمة والسخط، فأسقطهم في مهاوى الردى، وأودية الهلكة، وتركهم في طغيانهم يعمهون، قد حُلي بينهم وبين عدوهم يؤزهم إلى الضلال والباطل أزاً، ويدفعهم إلى الضلال والغواية دفعاً، فلا تراهم إلا في مساخط الله وما يوجب غضبه وأليم عقابه منغمسون، قد حرموا نعمة الهداية إلى طريق الحق والثبات عليه، عقوبة لهم على اجترائهم على حرمات الله وعدم خشيته وتقواه.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز، وبين النبي ﷺ في سنته الغراء أن

لكلٍ من التوفيق والخذلان أسباباً من قامت به استحق ما يقابله من الهداية أو الإضلال، وأن ذلك جاريٍ على مقتضى حكمة الله سبحانه في توفيق من يشاء فضلاً منه وكرماً، وخذلان من يشاء عدلاً ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

وقد ذكرت في هذه الدراسة ما يتعلق بموضوع التوفيق والخذلان، وعلاقتها بأفعال الله ﷻ، وتطرقت إلى الحكمة من توفيق العباد وخذلانهم، والأسباب الموجبة للأمرين.

أسباب اختيار الموضوع:

١. أهمية الحديث عن التوفيق والخذلان، ليعرف المسلم أسباب التوفيق فيأتي بها، وأسباب الخذلان وسلب التوفيق فيحذرها.

٢. إظهار حكمة الله تعالى في هداية من اهتدى، وإضلال من ضل، وأن ذلك راجع إلى العدل المطلق الذي قامت عليه السموات والأرض.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة، وتمهيد، خمسة مباحث، وخاتمة، وفهارس.

❖ **المقدمة.**

❖ **التمهيد، وفيه ثلاثة مطالب:**

المطلب الأول: تعريف التوفيق في اللغة والشرع.

المطلب الثاني: تعريف الخذلان في اللغة والشرع.

المطلب الثالث: العلاقة بين فعل العبد وفعل الرب ﷻ.

- ❖ **المبحث الأول:** مفهوم التوفيق والخذلان عند أهل السنة والجماعة.
- ❖ **المبحث الثاني:** النصوص الدالة على توفيق الله تعالى للعبد.
- ❖ **المبحث الثالث:** النصوص الدالة على خذلان الله تعالى للعبد.
- ❖ **المبحث الرابع:** أسباب التوفيق.
- ❖ **المبحث الخامس:** أسباب الخذلان.
- ❖ **المبحث السادس:** الحكمة من التوفيق والخذلان.
- ❖ **الخاتمة.**
- ❖ **الفهارس.**

التمهيد، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التوفيق في اللغة والشرع.

المسألة الأولى: تعريف التوفيق في اللغة.

يطلق لفظ التوفيق في اللغة ويراد به: الملائمة بين الشيئين، والتوافق بينهما، قال ابن فارس (ت٣٩٥ هـ): ((الواو والفاء والقاف: كلمة تدل على ملاءمةِ الشَّيئين، منهُ الْوَفْقُ: الموَافَقة، واتفق الشيئان: تقاربا وتلاءما، ووافقتُ فلانًا: صادقْتُهُ، كأَنَّهُمَا اجتمعا متوافِقَيْنِ))[(١)].

ومنه قولهم: أَوفَقَ القوم الرجل: إذا اجتمعت كلمتهم عليه، وأَوفَقَت الإبلُ: اصطفت واستوت معاً[(٢)].

ويرد التوفيق ويراد به الهداية والتسديد، جاء في المصباح المنير: ((وفقه الله توفيقاً: سدده، ووَفِق أمره يَفِق بكسرتين: من التوفيق))[(٣)]، وورد في لسان العرب: ((ووَفَّقه اللَّه سبحانه للخيرِ: أَلهمه، وهو من التَّوفيق))[(٤)].

وكلمة التوفيق تختص بالخير دون الشر، قال الراغب (ت٥٢٠ هـ): ((الِاتِّفَاقُ: مطابقة فعل الإنسان القَدَر، ويقال ذلك في الخير والشر، يقال:

---

(١) مقاييس اللغة (١٢٨/٦).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٢٥٧/٩).

(٣) (٦٦٧/٢).

(٤) (٣٨٣/١٠).

اتَّفَقَ لفلان خَيرٌ، واتَّفَقَ له شرٌّ، والتَّوْفِيقُ نحوه لكنه يختصّ في التّعارف بالخير دون الشّرّ، قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٨٨]))[١].

المسألة الثانية: تعريف التوفيق في الشرع.

وأما التوفيق في الشرع فهو: تسهيل سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ للعبد[٢]، قال الإمام السمعاني رحمه الله (ت٤٨٩هـ): ((وَقَوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٨٨] دَلِيل على أَن الطَّاعَة لَا يُؤْتى بهَا إِلَّا بِتَوْفِيق الله، والتوفيق من الله: هُوَ التسهيل والتيسير والمعونة))[٣]، وأشار العلامة ابن القيم (ت٧٥١هـ) إلى هذا المعنى فقال: ((والتَّوفيقُ: إرادة اللَّه من نفسه أنْ يفعل بعبده ما يُصْلِحُ به العبد، بأن يجعله قادرًا على فعل ما يرضيه، مريدًا له، محبًّا له، مؤثرًا له على غيره))[٤].

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص٨٧٧-٨٧٨).

(٢) انظر: معالم التنزيل (٤٦٢/٢).

(٣) تفسير السمعاني (٤٥٢/٢).

(٤) مدارج السالكين (٤١٥/١).

المطلب الثاني: تعريف الخذلان في اللغة والشرع.

المسألة الأولى: تعريف الخذلان في اللغة.

هذا اللفظ يطلق ويراد به ترك النصرة والمعونة، وعدم التأييد، قال ابن فارس رحمه الله (ت ٣٩٥ هـ): ((الخاء والذال واللَّام أصل واحد يدل على ترك الشَّيْءِ وَالْقُعُودِ عَنْهُ، فَالْخِذْلَانُ: تَرْكُ الْمَعُونَةِ))[١]، وجاء في لسان العرب: ((الخاذل: ضد الناصر، خَذَلَه وخَذَلَ عنه يَخْذُلُهُ خَذْلًا وخِذْلاناً: ترك نصرته وعَوْنه، والتخذيل: حمل الرجلِ على خذلان صاحبه وتثبيطه عن نصرته))[٢].

وهذه الكلمة مدارها على الترك، ومنه قيل للبقر والضباء خَذُول، وهي التي تترك صويحباتها في المرعى وتنفر مع ولدها، وكذلك سميت الشاة التي تتخلف عن المرعى خَذُول[٣].

المسألة الثانية: تعريف الخذلان في الشرع.

يرد الخذلان في الشرع ويراد به عدم العصمة من الوقوع في الذنوب والآثام، فهو عبارة عن التخلية بين العبد وبين المعصية، قال القرطبي رحمه الله (ت ٦٧١هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ((﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ يترككم من معونته ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾

---

(١) مقاييس اللغة (١٦٥/٢).

(٢) (٢٠٢/١١).

(٣) تهذيب اللغة (١٤١/٧).

أي: لا ينصركم أحدٌ من بعده، أي: من بعد خِذْلَانه إيَّاكم، لأنه قال: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾والخِذلان: ترك العون))[1].

وبين شيخ الإسلام رحمه الله أن الخذلان منشأه عدم سؤال الله تعالى الهداية والتوفيق، وأن من خذله الله فقد أسلمه لهواه ونفسه الأمارة بالسوء، وكذلك الشياطين التي تتربص به، فقال رحمه الله (ت ٧٢٨هـ): ((إذا أُلهم العبد أن يسأل اللَّه الهداية ويستعينه على طاعته، أعانه وهداه، وكان ذلك سبب سعادته في الدنيا والآخرة، وإذا خذل العبد فلم يعبد اللَّه؛ ولم يستعن به، ولم يتوَكل عليه، وكل إلى حوله وقوته، فَيُوَلِّيهِ الشيطان، وَصُدَّ عن السبيل، وشقي في الدنيا والآخرة))[2].

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله (ت ٧٥١هـ) مؤكداً ذلك المعنى: ((فما خلَّى اللَّه بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك، وخلى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلًا، فقد أجمع العارفون باللَّه على أن الْخِذْلَان: أن يكلك اللَّه إلى نفسك، ويخلي بينك وبينها))[3].

المطلب الثالث: العلاقة بين فعل العبد وفعل الرب ﷻ.

أفعال المكلفين تنقسم إلى: أفعالٍ اختيارية؛ أي: أن الواحد منهم يفعلها باختيارِه؛ حيث جعل الله له إرادةً لفعلها و تركها، كالأكل والشرب والقيام والقعود ونحو ذلك.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/٢٥٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/٢٣٦).

(٣) مدارج السالكين (١/١٩٨).

وأفعالٍ غير اختيارية؛ أي: أنها تقوم به من غير اختياره؛ كجريان الدَّم في العروق، وهضم الطعام، والنفس وغير ذلك.

والأدلة من الكتاب والسنة تثبت نسبة أفعال العباد الاختيارية إليهم حقيقة، كما تثبت نسبتها إلى الله حقيقةً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت ٧٢٨ هـ): ((ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن اللَّه خالق كل شيءٍ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، أن العباد لهم مشيئة وقدرة يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه مع قولهم إن العباد لا يشاءون إلا أن يشاء اللَّه... والقرآن قد أخبر أن العباد يؤمنون ويكفرون، ويفعلون ويعملون ويكسبون، ويطيعون ويعصون، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجون ويعتمرون، ويقتلون ويزنون ويسرقون، ويصدقون ويكذبون... فلم يكن من السَّلف والأئمة من يقول: إنَّ العبد ليس بفاعل ولا مختار ولا مريد ولا قادر، ولا قال أحد منهم: إنه فاعل مجازاً بل من تكلم منهم بلفظ الحقيقة والمجاز متفقون على أن العبد فاعل حقيقة، والله تعالى خالق ذاته وصفاته وأفعاله))[1].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله (ت ٧٥١هـ): ((قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] مبطلٌ لقول الطائفتين المنحرفتين عن قصد السبيل، فإنه يتضمن إثبات فعل العبد وقيام العبادة به حقيقة فهو العابد على الحقيقة، وإن ذلك لا يحصل له إلا بإعانة رب العالمين عز وجل له، فإن لم يعنه ولم يقدره ولم

(١) مجموع الفتاوى (٨/٤٥٩-٤٦٠).

يشأ له العبادة لم يتمكن منها ولم يوجد منه البتة))[1].

فأما نسبة أفعالِ العِبادِ الاختِياريَّةِ إلى اللهِ تعالى فإنما تنسب إليه خَلْقاً وتَقديراً، قال أبو عبد الله محمد بن إسماعيل[2]: سمعت عبيد الله بن سعيد يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون: «إن أفعال العباد مخلوقة» قال أبو عبد الله: «حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة»[3].

وقال ابن تيميَّة رحمه الله (ت٧٢٨ هـ):((أفعال العباد مخلوقة باتفاق سلف الأمة وأئمتها، كما نص على ذلك سائر أئمة الإسلام، الإمام أحمد ومن قبله وبعده، حتى قال بعضهم: من قال: إن أفعال العباد غير مخلوقة، فهو بمنزلة من قال: إن السماء والأرض غير مخلوقة، وقال يحيى بن سعيد العطار: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون أفعال العباد مخلوقة، وكان السلف قد أظهروا ذلك لما أظهرت القدرية، أن أفعال العباد غير مخلوقة لله، وزعموا أن العبد يحدثها أو يخلقها دون الله، فبين السلف والأئمة أن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها)) [4].

ومِنَ الأَدِلّةِ على ذلك قولُه تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٥ – ٩٦] قال شيخ الإسلام ابنُ تيميَّة رحمه الله (ت ٧٢٨ هـ): ((فجعل الأصنام منحوتة معمولة لهم، وأخبر أنه خلقهم وخالق معمولهم، فإن "ما" هاهنا: بمعنى الذي، والمراد: خلق ما تعملونه من الأصنام، وإذا كان خالقاً للمعمول وفيه أثر الفعل، دل على أنه خالق لأفعال العباد، وأما قول من قال:

---

(١) شفاء العليل (ص٥٣).

(٢) هو الإمام البخاري رحمه الله.

(٣) خلق أفعال العباد (ص٤٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٠٦/٨).

إن "ما" مصدرية فضعيفٌ جداً))[1].

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣] ، قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله (ت١٤٢١هـ): ((فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ يدل على أن اقتتالهم بمشيئة الله، ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ إذاً ففعلهم منسوب إلى الله خلقاً، كما أنه منسوب إلى الله تعالى إرادة وتقديراً))[2].

وكذلك من الأدلة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: ٤٣]، قال البغوي رحمه الله (ت٥١٦هـ): ((فهذا يدل على أن كل ما يعمله الإنسان فبقضائه وخلقه حتى الضحك والبكاء))[3].

وأما نسبة أفعال العباد إليهم فذلك باعتبار كسبهم لها وفعلهم إياها، قال شيخ الإسلام رحمه الله (ت ٧٢٨ هـ) مبيناً هذا المعنى: ((والحوادث تضاف إلى خالقها باعتبارٍ وإلى أسبابها باعتبارٍ، فهي من اللَّه مخلوقة له في غيره... وهِي من العبد فعلاً له قائماً به وكسباً يجر به منفعةً إليه أو يدفع به مضرةً، وكون العبد هو الذي قام به الفعل وإليه يعود حكمه الخاص انتفاعاً به أو تضرراً، جهة لا تصلح لله، فإن اللَّه لا تقوم به أفعال العباد ولا يتصف بها، ولا تعود إليه أحكامها التِي تعود إلى موصوفاتها، وكون الرَّب هو الذي خلقها وجعلها عملاً لغيره بخلق قدرة العبد ومشيئته وفعله جهة لا تصلح للعبد، ولا

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٨).

(٢) شرح العقيدة السفارينية (ص٣٢٦).

(٣) تفسير البغوي (٣١٦/٤).

يقدر على ذلك إلَّا الله، ولهذا قال أكثر المثبتين للقدر: إنَّ أفعال العباد مخلوقة لله، وهي فعل العبد وإذا قيل هي فعل الله فالمراد أنها مفعولةٌ له، لا أنها هي الفعل الذي هو مسمى المصدر))[1].

وقد أوضح الإمام ابن القيم العلاقة بين فعل العبد وفعل الرب، والمعنى المراد من إضافة الفعل إلى الله، ومن إضافته إلى العبد، فقال رحمه الله: ((إحداث الله سبحانه لها بمعنى أنه خلقها منفصلة عنه قائمة بمحلها وهو العبد، فجعل العبد فاعلاً لها بما أحدث فيه من القدرة والمشيئة، وإحداث العبد لها بمعنى أنها قامت به وحدثت بإرادته وقدرته، وكل من الإحداثين مستلزم للآخر ولكن جهة الإضافة مختلفة، فما أحدثه الرب سبحانه من ذلك فهو مباين له قائم بالمخلوق مفعول له لا فعل، وما أحدثه العبد فهو فعل له قائم به يعود إليه حكمه ويشتق له منه اسمه))[2].

وقد دلت النصوص المتكاثرة على إضافة الأفعال إلى فاعليها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام: ١٢٧] وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الواقعة: ٢٤] ، قال الطبري رحمه الله (ت٣٠٠هـ): ((يقول تعالى ذكره: ثواباً لهم من الله بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، وعوضاً من طاعتهم

(١) منهاج السنة النبوية (٣/١٤٦-١٤٩).

(٢) شفاء العليل (ص١٧٦).

إياه))[1].

وكذلك أشارت النصوص إلى أن للإنسان مشيئة وإرادة بها يختار ويرجح، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال جل شأنه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر: ٣٧]، قال شيخ الإسلام رحمه الله (ت ٧٢٨ هـ): ((اعلم أن العبد فاعل على الحقيقة، وله مشيئةٌ ثابتةٌ وله إرادةٌ جازمةٌ وقوةٌ صالحةٌ، وقد نطق القرآن بإثبات مشيئة العباد في غير ما آيةٍ كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨ – ٢٩]، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإنسان: ٢٩]، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٥٥ – ٥٦]، ونطق بإثبات فعله في عامة آيات القرآن: ﴿يعملون﴾ ﴿يفعلون﴾ ﴿يؤمنون﴾ ﴿يكفرون﴾))[2].

فتقرر مما سبق أن الأفعال التي يقوم بها العباد ((هي خلق الله وكسبٌ من العباد))[3]، ولتوضيح وجه التلازم بين الأمرين يقول شيخ الإسلام رحمه الله (ت ٧٢٨ هـ): ((وإذا كان العبد لا يحصل فعله إلا بمرجحٍ من الله تعالى، وعند وجود ذلك المرجح يجب وجود الفعل كان فعله كسائر الحوادث التي تحدث بأسبابٍ يخلقها الله تعالى يجب وجود الحادث عندها، وهذا معنى كون الرب تبارك وتعالى خالقاً لفعل العبد، ومعنى ذلك: أن الله تعالى يخلق في العبد القدرة التامة والإرادة الجازمة، وعند وجودهما يجب وجود الفعل؛ لأن هذا سببٌ تامٌّ

(١) جامع البيان (١٠٧/٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٩٣/٨).

(٣) العقيدة الطحاوية مع شرحها لابن أبي العز الحنفي (ص٤٣٧).

للفعل، فإذا وجد السبب التام وجب وجود المسبب))[1].

ومما يتعلق بهذا الشأن بيان أن من مقتضيات حكمة الله تعالى أنه يجتبي ويصطفي من عباده من جاء بأسباب الهداية، بِالإنابة إلى الله، والإقبالِ على الحق؛ فمن اهتدى فإن الله يهديه، وكلَّما زاد اهتداءً زاده الله هدى؛ وهذا مُقتَضَى العَدْل، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ۝٢٧﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧].

كما أن حكمته تقتضي أنه يضل الظالمين ويخذلهم، إذا جاؤُوا بأسبابِ ذلك من أفعالهم؛ قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف: ٥]، فالاهتداء والضلال هي أفعال العباد، وأما الهداية والإضلال فهي من الرب جزاءً لأعمالهم.

(١) منهاج السنة النبوية (٢٦٩/٣).

المبحث الأول: مفهوم التوفيق والخذلان عند أهل السنة والجماعة.

قد اختص الله ﷻ عبده المؤمن بمزيد إعانة بها قدر على الاهتداء، وفعل الطاعات والقربات، ولولا ذلك الفضل وتلك المنة لما كان قادراً على القيام بذلك، قال شيخ الإسلام رحمه الله (ت ٧٢٨ هـ): ((فإنهم متفقون على أن لله على عبده المطيع المؤمن نعمة دينية خصه بها دون الكافر، وأنه أعانه على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات: ٧]، فبين أنه حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، فالقدرية تقول: هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق، أو هو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق، والآية تقتضي أن هذا خاص بالمؤمنين ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ والكفار ليسوا راشدين.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]... ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة، يبين سبحانه وتعالى اختصاصه عباده المؤمنين بالهدى والإيمان والعمل الصالح)) (١).

وقرر هذا المعنى الإمام أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ) فقال: ((جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله... وأن الله سبحانه وفق المؤمنين لطاعته وخذل الكافرين، ولطف بالمؤمنين ونظر لهم وأصلحهم وهداهم ولم يلطف بالكافرين ولا أصلحهم ولا هداهم، ولو أصلحهم لكانوا صالحين ولو هداهم لكانوا مهتدين، وأن الله سبحانه يقدر أن

(١) منهاج السنة النبوية (٣/٤٣-٤٥).

يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ولكنه أراد أن لا يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم وخذلهم وأضلهم وطبع على قلوبهم))[1].

وتوفيق الله تعالى وإعانته لعبده هو من أفعاله التي اقتضتها حكمته، وأما نفس الطاعة وعدمها فمن أفعال المكلف وواقعة باختياره، إن أحب فعل وإن أحب لم يفعل، وذلك التوفيق محض تفضل منه على من شاء من عباده، وذلك لا ينافي عدله سبحانه، قال شيخ الإسلام رحمه الله (ت ٧٢٨ هـ): ((والله تعالى غني عن العباد، إنما أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم، فهو محسن إلى عباده بالأمر لهم محسن لهم بإعانتهم على الطاعة، ولو قدر أن عالماً صالحاً أمر الناس بما ينفعهم ثم أعان بعض الناس على فعل ما أمرهم به ولم يعن آخرين، لكان محسناً إلى هؤلاء إحساناً تاماً ولم يكن ظالماً لمن لم يحسن إليه، وإذا قدر أنه عاقب المذنب العقوبة التي يقتضيها عدله وحكمته لكان أيضا محموداً على هذا وهذا وأين هذا من حكمة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.

فأمره لهم إرشاد وتعليم وتعريف بالخير، فإن أعانهم على فعل المأمور كان قد أتم النعمة على المأمور، وهو مشكور على هذا وهذا، وإن لم يعنه وخذله حتى فعل الذنب كان له في ذلك حكمة أخرى))[2].

وفي المقابل فإن الله تعالى قد خذل الكفار والعصاة فلم يدلهم على الهداية، ولم يعنهم عليها، جزاءً لهم على كفرهم وعصيانهم، قال شيخ الإسلام رحمه الله

---

(١) مقالات الإسلاميين (ص٢٩١-٢٩٢).

(٢) منهاج السنة (٣/٣٨).

(ت ٧٢٨ هـ): ((ومن تدبر القرآن: تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاءً لذلك العمل، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾ [الأنعام: ١٢٥]، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥] ، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ [الليل: ٨ – ١٠]، وهذا وأمثاله بذلوا فيه أعمالاً عاقبهم بها على فعل محظورٍ وترك مأمورٍ، وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له، ولا بد لهم من حركةٍ وإرادةٍ، فلما لم يتحركوا بالحسنات حُرِّكُوا بالسيئات عدلاً من الله))[1].

فالخلق كلهم قسمان: موفقٌ بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، وهم مترددون بين الطريقين، ومتقلبون بين الحالين، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله (ت٧٥١ هـ): ((وقد أجمع العارفون بالله أن التوفيق هو أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلى بينك وبين نفسك، فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه فإن وفقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود على هذا وهذا له أتم حمد وأكمله، ولم يمنع العبد شيئاً هو له، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/٣٣٥).

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نفس وكل لحظة وطرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى لو تخلى عنه طرفة عين لثُلَّ عرش توحيده ولخرت سماء إيمانه على الأرض، وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فهجيرى قلبه ودأب لسانه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك، ودعواه: يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك.

ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه كما يشهد ربوبيته وخلقه، فيسأله توفيقه مسألة المضطر، ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف، ويلقي نفسه بين يديه طريحاً ببابه مستسلماً له، ناكس الرأس بين يديه خاضعاً ذليلاً مستكيناً، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ونشوراً))[1].

(١) مدارج السالكين (١/٤١٥).

المبحث الثاني: النصوص الدالة على توفيق الله تعالى للعبد.

دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الله سبحانه يوفق من يشاء من عباده للإيمان والهداية، ويرشدهم ويدلهم على ما فيه صلاحهم ونجاحهم في الدنيا والآخرة، وقد تنوعت دلالة تلك النصوص، على عدة أوجه، فمن ذلك:

- بيان أن التوفيق بيد الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨] ، قال ابن جرير رحمه الله (ت ٣١٠ هـ): ((يقول: وما إصابتي الحق في محاولتي إصلاحكم وإصلاح أمركم إلا بالله، فإنه هو المعين على ذلك، إلا يعنّي عليه لم أصب الحق فيه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يقول: إلى الله أفوض أمري، فإنه ثقتي، وعليه اعتمادي في أموري))[1].وقال ابن القيم رحمه الله (ت ٧٥١ هـ): ((لا عاصم من غضبه [جل وعلا] وأسباب سخطه إلا هو، ولا سبيل إلى طاعته إلَا بمعونته، ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه، فموارد الأمور كلها منه، ومصادرها إليه، وأزمة التوفيق جميعها بيديه فلا مستعان للعباد إلا به، ولا متكل إلا عليه، كما قال شعيبٌ خطيب الأنبياء: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾))[2].
- ومنها: بيان أن الهداية منه تعالى وحده، قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

---

(١) جامع البيان (١٥/٤٥٤).

(٢) مدارج السالكين (١/٤١٤).

بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦] ، قال ابن جرير رحمه الله (ت ٣١٠ هـ): ((يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ هدايته ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ أن يهديه من خلقه، بتوفيقه للإيمان به وبرسوله، ولو قيل معناه: إنك لا تهدي من أحببته لقرابته منك، ولكن الله يهدي من يشاء، كان مذهباً))[1]، وقال شيخ الإسلام رحمه الله (ت ٧٢٨ هـ): ((فالرسول يدعو إلى الله ويتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويُعلّمهم الكتاب والحكمة، وهو يهديهم بمعنى أنه يدعوهم ويُبيّن لهم، وليس في قدرته أن يجعل الهدى ولا الضلالة في قلب أحد، بل ذلك لا يَقدِرُ عليه إلاّ الله، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، أي: من يضله الله لا يهدَى))[2].

- ومنها: إرشاد العباد إلى سؤال الله تعالى الهداية، قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦] ، وإخباره عن الراسخين في العلم أنهم يسألون الله تعالى الثبات على الهداية وعدم الزيغ بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨]، قال البغوي رحمه الله (ت ٥١٦ هـ): ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أَيْ: ويقول الراسخون في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي:لا تملها عن الحق والهدى كما أزغت قلوب الذين في قلوبهم زيغ فضلّوا وأضلوا، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ وفقتنا

(١) جامع البيان (٥٩٨/١٩).

(٢) جامع المسائل (٧٥/٢).

لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك))[1]. وعن عبد الرحمنِ بن عوفٍ قال سألت عائشة أم المؤمنين: بأي شيءٍ كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليلِ؟ قالت: كان إذا قام من الليلِ افتتح صلاتَه: ‹‹اللهمَّ ربَّ جبرائيلَ وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ››[2].

- ومنها: إخباره جل شأنه عن اصطفائه بعض خلقه واجتبائهم إليه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: ٣٢] ، قال الشيخ السعدي رحمه الله (ت ١٣٧٦هـ): ((فكلهم اصطفاه الله تعالى لوراثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثة الكتاب، لأن المراد بوراثة الكتاب: وراثة علمه وعمله ودراسة ألفاظه واستخراج معانيه.

وقوله ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾راجع إلى السابق إلى الخيرات لئلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾أي: وراثة الكتاب

---

(١) معالم التنزيل (٤١٣/١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ٥٣٤/١ رقم الحديث (٧٧٠) .

الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه، كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق، وأكبر الفضل، وراثة هذا الكتاب))[1].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: ١٣] ، قال ابن جرير رحمه الله (ت ٣١٠ هـ): ((يقول: الله يصطفي إليه من يشاء من خلقه، ويختار لنفسه، وولايته من أحبّ))[2]، وقال ابن كثير رحمه الله (ت ٧٧٤ هـ): ((أي: هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد))[3]

- ومنها: الإخبار عن تثبيته تعالى للذين آمنوا، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ، قال السمعاني رحمه الله (ت ٤٨٩ هـ): ((قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾ القول الثابت: كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله، وقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ لأنه هو المثبت للإيمان في قلوب المؤمنين))[4]، وسؤال النبي ﷺ الثبات، فعن أنسٍ قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: ‹‹يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ››، قال: فقلنا يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: فقال: ‹‹نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٨٩).
(٢) جامع البيان (٥١٤/٢١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١٧٨/٧).
(٤) تفسير السمعاني (١٥/٣).

يُقَلِّبُهَا»»[1].

- ومنها: الإخبار عن تنوير قلوب العباد بنور الإيمان واليقين، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ، وقال تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، قال الطبري رحمه الله (ت ٣١٠ هـ): ((يقول تعالى ذكره: يوفق الله لاتباع نوره، وهو هذا القرآن، من يشاء من عباده))[2]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، قال الطبري رحمه الله (ت ٣١٠ هـ): ((يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نصيرهم وظهيرهم، يتولاهم بعونه وتوفيقه ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يعني بذلك: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان... فأخبر تعالى ذكره عباده أنه ولي المؤمنين، ومبصرهم حقيقة الإيمان وسبله وشرائعه وحججه، وهاديهم فموفقهم لأدلته المزيلة عنهم الشكوك، بكشفه عنهم دواعي الكفر، وظلم سواتر أبصار القلوب))[3].

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ٤/٢٦ رقم الحديث (٢١٤٠) وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم الحديث (٧٩٨٧).

(٢) جامع البيان (١٩/١٨٨).

(٣) المرجع السابق (٥/٤٢٥).

المبحث الثالث: النصوص الدالة على خذلان الله تعالى للعبد.

اقتضت حكمة الحكيم الخبير أنه كما يوفق من شاء من عباده فضلاً، فهو تعالى يخذل من شاء منهم عدلاً، ولا يظلم ربك أحداً، وقد وردت النصوص بذلك أيضاً، وتنوعت دلالتها، فمن ذلك:

- دلالة الآيات على أن الله يخذل من يشاء، قال تعالى: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠]، قال ابن جرير رحمه الله (ت ٣١٠ هـ): ((يعني: إن يخذلكم ربكم بخلافكم أمره وترككم طاعته وطاعة رسوله، فيكلكم إلى أنفسكم ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ يقول: فأيسوا من نصرة الناس، فإنكم لا تجدون ناصراً من بعد خذلان الله إياكم إن خذلكم))[1]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]، قال ابن جرير رحمه الله (ت ٣١٠ هـ): ((يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تجعل يا محمد مع الله شريكاً في ألوهته وعبادته، ولكن أخلص له العبادة، وأفرد له الألوهة، فإنه لا إله غيره، فإنك إن تجعل معه إلها غيره، وتعبد معه سواه، ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾: يقول: تصير ملوماً على ما ضيعت من شكر الله على ما أنعم به عليك... ﴿مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ قد أسلمك ربك لمن بغاك سوءاً، وإذا أسلمك ربك الذي هو ناصر أوليائه لم يكن لك من دونه وليّ ينصرك ويدفع عنك))[2].
- ومنها: بيان أن الله لا يهدي من لا يستحق الهداية، ممن أعرض عن الحق وتكبر عنه، قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ

(١) جامع البيان (٣٤٧/٧).

(٢) المرجع السابق (٤١٢/١٧).

وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٦] ، وقال تعالى: ﴿ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النحل: ٣٧] ، قال ابن جرير رحمه الله (ت ٣١٠ هـ): ((إن تحرص يا محمد على هداهم، فإن من أضله الله فلا هادي له، فلا تجهد نفسك في أمره، وبلغه ما أرسلت به لتتم عليه الحجة))[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] في آيات كثيرة.

- ومنها: إخباره تعالى أنه يضل من يشاء، قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرعد: ٢٧] وقال سبحانه: ﴿ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الروم: ٢٩] ، قال ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ): ((أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم))[(٢)].
- ومنها: إخباره عن صرف بعض الخلق عن آياته والاسترشاد بها، قال تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ، قال البغوي رحمه الله (ت ٥١٦ هـ): ((يعني: سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها ، عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم للحق كقوله:

---

(١) الرجع السابق (٢٠٢/١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٨٢/٦).

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]))[١].

- ومنها: إخباره ﷻ عن الطبع والختم على قلوب الكافرين، وأنه جعل على قلوبهم أكنه وفي آذانهم وقراً، وأنه سلك التكذيب في قلوبهم، وغشاها الران فلا ينفذ إليها الحق، قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: ٧]، قال البغوي رحمه الله (ت ٥١٦ هـ): ((أي: طبع الله على قلوبهم فلا تعي خيراً ولا تفهمه... ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ أي: على موضع سمعهم فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به... ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ هذا ابتداء كلامٍ، غشاوةٌ أي: غطاءٌ فلا يرون الحق))[٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ [الإسراء: ٤٦]، قال شيخ الإسلام رحمه الله (ت ٧٢٨ هـ): ((والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع كقوله: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ وقال: ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١٠٩ – ١١٠]))[٣].

---

(١) معالم التنزيل (٢/٢٣٤).

(٢) معالم التنزيل (١/٨٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/١٥٢).

المبحث الرابع: أسباب التوفيق.

إن التوفيق منَّة من الله تعالى على من اصطفاه من عبادة، وهم الذين أتوا بأسباب التوفيق، وتحققت بهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۚ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]، قال ابن القيم رحمه الله (ت ٧٥١ هـ): ((فهو سبحانه لا يضع بره وفضله إلا في موضعه ووقته بقدر ما تقتضيه حكمته، ولو بسط الله الرزق لعباده لفسدوا وهلكوا، ولو علم في الكفار خيراً وقبولاً لنعمة الإيمان، وشكراً له عليها ومحبةً له واعترافاً بها لهداهم إلى الإيمان، ولهذا لما قالوا للمؤمنين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۚ﴾ أجابهم بقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: هم الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان، ويشكرون الله عليها))[1].

وتلك الأسباب كثيرة متعددة، ومن أبرزها:

أولاً: طلب الحق والرغبة فيه، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: ٢٣]، وعن أبي واقدٍ الليثي، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالسٌ في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفرٍ، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحدٌ، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجةً في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ

(١) مدارج السالكين (٢/٤٥٠).

قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ»[1]، قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: ((ومعنى: ‹‹أَوَى إِلَى اللَّهِ›› لجأ إلى الله أو على الحذف، أي: انضم إلى مجلس رسول الله ﷺ، ومعنى: ‹‹فآواه الله›› أي: جازاه بنظير فعله بأن ضمه إلى رحمته ورضوانه... قوله: ‹‹فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ›› أي: سخط عليه، وهو محمولٌ على من ذهب معرضاً لا لعذر))[2].

فهذا الذي جاء طالباً الخير والهداية، وفقه الله بأن ضمه إلى مجالس الخير، بخلاف الآخر فبسبب إعراضه عامله الله بالحرمان، ولم يوفقه للجلوس مع النبي ﷺ وصحبه الأخيار[3].

ثانياً: الإيمان بالله تعالى، وعدم الكفر به، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ [يونس: ٩].

ثالثاً: قبول الحق وشرح الصدر له، وعدم رده والاستكبار عنه، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال جل شأنه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ٦٤/١ رقم الحديث (٦٦) ، ومسلم، كتاب السلام، باب من أتى مجلساً فوجد فرجة فجلس فيها ١٧١٣/٤ رقم الحديث (٢١٧٦).

(٢) فتح الباري (١٥٧/١).

(٣) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٥٣٤/٥).

فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢].

رابعاً: سؤال الله تعالى التوفيق والهداية لصراط الحق، والتضرع إليه بذلك، فقد حكى تعالى عن المؤمنين قولهم: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦]، وقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨]، وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وكان النبي ﷺ يسأل الله التوفيق والهداية، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يقول: ‹‹اللهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلا أَنْتَ، اصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلا أَنْتَ››(١)، وعن ابن عباس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، كان يقول في دعائه: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي، وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي››(٢)، وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى أنه قال: ‹‹يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ››(٣).

خامساً: مجاهدة النفس على طاعة الله، والقيام بأداء الواجبات وترك المحرمات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ٥٣٤/١ رقم الحديث (٧٧١).

(٢) أخرجه أبو داود، باب تفريع أبواب الوتر، باب ما يقول الرجل إذا أسلم ٨٣/٢ رقم الحديث (١٥١٠)، والترمذي، في أبواب الدعوات ٤٤٣/٥ رقم الحديث (٣٥٥١) وصححه، وكذلك صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم (٧٣٨).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ١٩٩٤/٤ رقم الحديث (٢٥٧٧).

[العنكبوت: ٦٩]، وقال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٰتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦ – ٦٨].

سادساً: العناية بكتاب الله حفظاً وفهماً وتدبراً، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ – ١٦] ، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩].

سابعاً: الإخلاص، قال تعالى عن يوسف: عليه السلام ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿المخلِصين﴾ بكسر اللام[1]، ((بمعنى: إن يوسف من عبادنا الذين أخلَصوا توحيدنا وعبادتنا))[2].

ثامناً: الشكر، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]، فشكر المنعم يوجب التوفيق للعبد، وزيادة الخير والبركات، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

---

(١) المبسوط في القراءات العشر ص:٢٤٦، النشر في القراءات العشر ٢/٢٩٥.

(٢) جامع البيان (١٦/٥٠).

المبحث الخامس: أسباب الخذلان.

من المعلوم أن التوفيق يقابله الخذلان، وكما أن للتوفيق أسباباً فكذلك للخذلان أسباباً تقابلها، فمن تلك الأسباب:

أولاً: الإعراض عن الحق، قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنعام: ٤ – ٥]، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال سبحانه: ﴿* إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢ – ٢٣].

ثانياً: العناد للحق بعد معرفته، قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٨٦] ، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

ثالثاً: الكفر بالله والإشراك به، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦]، وضرب تعالى المثل لخذلان المشرك بمن كان ممتنعاً لا يصل إليه عدوه، فخر من السماء فتخطفته الشياطين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ

بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]، قال ابن القيم رحمه الله (ت ٧٥١ هـ): ((شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء... وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين، من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة، والطير الذي يخطف أعضاءه ويمزقه فقال كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله سبحانه وتعالى عليه تؤزه أزاً، وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله القاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء))[1].

رابعاً: إتباع الهوى والشيطان، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص: ٢٦] ، وقال سبحانه عن الشيطان: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، وقال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٩].

خامساً: الكبر ورد الحق، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۖ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۖ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال ﷻ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ

(١) إعلام الموقعين (١/١٣٨-١٣٩).

كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

سادساً: الكذب وعدم الوفاء بالعهود والمواثيق، قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥ – ٧٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣].

سابعاً: هجر الكتاب العزيز وعدم تلاوته والاهتداء به، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣ – ١٢٦]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠].

ثامناً: الركون إلى الكفار والمنافقين وطاعتهم ومحبتهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: ١٤٩]، وقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

تاسعاً: فعل المعاصي واتباع الشهوات، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩] ، وقال جل شأنه: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩].

المبحث السادس: الحكمة من التوفيق والخذلان.

أفعال الله تعالى مبنية على العلم والحكمة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٣٠] ، وكل شيء في هذا الكون فهو تحت مشيئته وقدرته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، قال ابن القيم رحمه الله (ت٧٥١ هـ) مبيناً مراد صاحب المنازل بقوله: ((أن تشهد في هداية الحق وإضلاله إصابة العدل))، قال رحمه الله: ((يريد رحمه الله بشهود العدل في هدايته من هداه وفي إضلاله من أضله أمرين:

أحدهما: تفرده بالخلق والهدى والضلال.

والثاني: وقوع ذلك منه على وجه الحكمة والعدل لا بالاتفاق، ولا بمحض المشيئة المجردة عن وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها، بل بحكمة اقتضت هدى من علم أنه يزكو على الهدى ويقبله ويشكره عليه ويثمر عنده، فالله أعلم حيث يجعل رسالاته أصلاً وميراثاً، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]، وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى ويشكرونه عليها ويحبونه ويحمدونه على أن جعلهم من أهله، فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدى وإضلال من أضل، ولم يطرد عن بابه ولم يبعد عن جنابه من يليق به التقريب والهدى والإكرام، بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد، وحكمته وحمده تأبى تقريبه وإكرامه وجعله من أهله وخاصته وأوليائه))[1].

(١) مدارج السالكين (١/١٤٦-١٤٧).

أما الأمر الأول الذي ذكره رحمه الله وهو تفرده تعالى بالخلق والتدبير، فلأن الله تعالى لا يخرج شيء عن ملكه وتصرفه –ومن ذلك أفعال العباد– وذلك من كمال ربوبيته وسلطانه، قال شيخ الإسلام رحمه الله: ((ما يطلب من العبد من الأفعال الاختيارية لا يفعلها إلا بإعانة الله له، كأن يجعله فاعلا لها بما يخلقه فيه من الإرادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة، وعند وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة يجب وجود المقدور، فمشيئة الله وحده مستلزمةٌ لكل ما يريده فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وما سواه لا تستلزم إرادته شيئاً؛ بل ما أراده لا يكون إلا بأمورٍ خارجةٍ عن مقدوره إن لم يعنه الرب بها لم يحصل مراده ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى))[1].

أما الأمر الثاني وهو جريان ذلك على مقتضى الحكمة، فمراده رحمه الله أن من جاء بأسباب التوفيق فحكمته جل وعلا تقتضى أن يوفق ويعان، ومن جاء بأسباب الخذلان فالحكمة تقتضي ألا يوفق، بل يترك لهواه وما تشتهيه نفسه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[الليل: ٥ – ٧]، فهذه الآيات تدل على أن الله يعامل عباده بمقتضى حكمته؛ فيجازي من أحسن وعمل الصالحات بتيسيره لليسرى، ومن أتى بخلاف ذلك من الأعمال السيئة فإنه ييسر للعسرى، قال الشيخ السعدي رحمه الله (ت ١٣٧٦هـ): ((﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ أي: نسهل عليه أمره، ونجعله ميسراً له كل خير، ميسرًا له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٣٣١).

التيسير، فيسر الله له ذلك))[1]، وقال في تفسير قوله: ((﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ أي: للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسرًا للشر أينما كان، ومقيضًا له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية))[2].

وقال تعالى في شأن المهتدين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد: ١٧] ، وقال في شأن الزائغين: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]، قال شيخ الإسلام رحمه الله (٧٢٨هـ): ((التوبة ممكنة وواقعه بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق، كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف أهل البدع والضلال، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه، فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨﴾ [النساء: ٦٦ – ٦٨]... وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة، وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعاً لهواه، فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ [البقرة: ١٠]))[3].

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، وهي تقرر هذا المعنى وتؤكد عليه، قال ابن القيم رحمه الله (٧٥١هـ): ((والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن

---

(١) تيسير الكريم المنان (ص٩٢٦).

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) التحفة العراقية (ص٣٩).

الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها فلا تقبل الهدى بعد ذلك))[1].

وكلٌ من التوفيق والخذلان لا ينافي عدل الرب ﷻ، فإن أعطى فبفضله، وإن منع فقد منع ما لا يجب عليه تبارك وتعالى، فإنه الغني عن جميع خلقه، وهم الفقراء المحتاجون إلى رحمته، وفي هذا المعنى يقول ابن القيم رحمه الله (٧٥١هـ): ((ذات الرب تعالى مستلزمة للحكمة والخير والجود، وذات العبد مستلزمة للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنما حصل له بفضل الله عليه، وهو أمر خارج عن نفسه، فمن أراد الله به خيراً أعطاه هذا الفضل فصدر منه الإحسان والبر والطاعة، ومن أراد به شراً أمسكه عنه وخلاه ودواعي نفسه وطبعه وموجبها، فصدر منه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح، وليس منعه لذلك ظلماً منه تعالى فإنه فضله، وليس من منع فضله ظالماً، لا سيما إذا منعه عن محل لا يستحقه ولا يليق به، وأيضا فإن هذا الفضل هو توفيقه وإرادته من نفسه أن يلطف بعبده ويوفقه ويعينه، ولا يخلى بينه وبين نفسه، وهذا محض فعله وفضله، وهو سبحانه أعلم بالمحل الذى يصلح لهذا الفضل ويليق به ويثمر فيه ويزكو به))[2].

---

(١) شفاء العليل (ص٩١).

(٢) طريق الهجرتين (ص٩٤-٩٥).

الخاتمة:

لا يسعني في ختام هذا البحث إلا أن أحمد الله تعالى، وأثني عليه بما هو أهله على ما وفق وأعان، وأضع بين يدي القارئ الكريم أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث، وهي على النحو التالي:

أولاً: أن التوفيق يطلق ويراد به: تسهيل سبيل الخير والطاعة للعبد.

ثانياً: يرد الخذلان في الشرع ويراد به عدم العصمة من الوقوع في الذنوب والآثام، فهو عبارة عن التخلية بين العبد وبين المعصية.

ثالثاً: أن الله تعالى قد اختص عبده المؤمن بمزيد إعانة بها قدر على الاهتداء، وفعل الطاعات والقربات، ولولا ذلك الفضل وتلك المنة لما كان قادراً على القيام بذلك.

رابعاً: أن الله تعالى قد خذل الكفار والعصاة فلم يدلهم على الهداية، ولم يعنهم عليها، جزاءً لهم على كفرهم وعصيانهم.

خامساً: بيان أن من مقتضيات حكمة الله تعالى أنه يجتبي ويصطفي من عباده من جاء بأسباب الهداية، بِالإنابة إلى الله، والإقبالِ على الحق؛ فمن اهتدى فإن الله يهديه، وكلَّما زاد اهتداءً زاده الله هدى؛ وهذا مُقتَضَى العَدْل، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

كما أن حكمته تقتضي أنه يضل الظالمين ويخذلهم، إذا جاؤُوا بأسبابِ ذلك من أفعالهم؛ قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾ [الصف: ٥]، فالاهتداء والضلال هي أفعال العباد، وأما الهداية والإضلال فهي من الرب جزاءً لأعمالهم.

سادساً: دلت النصوص الشرعية على أن للتوفيق أسباباً وللخذلان أسباباً، فعلى المسلم أن يعرف أسباب التوفيق ليفعلها، وأسباب الخذلان ليتجنبها.

فمن جاء بأسباب التوفيق فحكمته جل وعلا تقتضى أن يوفق ويعان، ومن جاء بأسباب الخذلان فالحكمة تقتضي ألا يوفق، بل يترك لهواه وما تشتهيه نفسه.

سابعاً: أن كلاً من التوفيق والخذلان لا ينافي عدل الرب ﷻ، فإن أعطى فبفضله، وإن منع فقد منع ما لا يجب عليه تبارك وتعالى، فإنه الغني عن جميع خلقه، وهم الفقراء المحتاجون إلى رحمته

وبالله التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

***

فهرس المصادر والمراجع

- إعلام الموقعين عن رب العالمين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- التحفة العراقية في الأعمال القلبية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: المطبعة السلفية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩م.
- تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ.
- تفسير القرآن، المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: أبو جعفر، محمد بن جرير

الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)، توزيع: دار التربية والتراث - مكة المكرمة - ص.ب: ٧٧٨٠، الطبعة: بدون تاريخ نشر.
- الجامع الكبير - سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي — بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨ م.
- جامع المسائل لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق: محمد عزير شمس الناشر: مجمع الفقه الإسلامي — جدة سنة النشر: ١٤٢٢هـ.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية — القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.
- خلق أفعال العباد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن عميرة، الناشر: دار المعارف السعودية — الرياض.
- سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن

بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
- شرح العقيدة السفارينية – الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ.
- شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة (عن مطبوعة المكتب الإسلامي)، الطبعة: الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
- شرح رياض الصالحين المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ) الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض الطبعة: ١٤٢٦ هـ.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- صحيح الجامع الصغير وزياداته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي.
- صحيح سنن أبي داود، المؤلف: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، الناشر: مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.

- طريق الهجرتين وباب السعادتين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ.
- لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.
- المبسوط في القراءات العشر، المؤلف: أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوريّ، أبو بكر (المتوفى: ٣٨١هـ)، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، الناشر: مجمع اللغة العربية – دمشق، عام النشر: ١٩٨١ م.
- مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة: الأولى ، ١٤٢٠ هـ.
- معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- المفردات في غريب القرآن، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، المؤلف: أبو الحسن الأشعري (المتوفى: ٣٢٤هـ)، عنى بتصحيحه: هلموت ريتر، الناشر: دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا)، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود

الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- النشر في القراءات العشر، المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣ هـ)، المحقق: علي محمد الضباع (المتوفى ١٣٨٠ هـ)، الناشر: المطبعة التجارية الكبرى.

***